فلنخرج من زمن الراحة

●● الذين يحدقون فى سقف الغرفة.. ينامون مبكرين!

عبارة قديمة للكاتب الأمريكى «كرواك».. أوردها ضمن صفحات طويلة، ولابد أنه حين كتبها كان حزينا بترف، أو أن الترف تعبير ملحوظ فى كلماته التى يستمدها من الإرهاق النفسى الرازح فوق صدره، والملون لرنيانه، والمبدد لكل مشاكساته الباهرة!!.

وهو يضع اللوحة أمام المشاهدين بيضاء. لتنعكس عليها كل الألوان والظلال والملامح.. من العابرين أمامها والمتأملين لبياضها أو فراغها كأنه يرسم ويسقط قلبه، أو كأنه أخفى قلبه وعامل الناس بالتحديق وبالصمت المتأمل!

فما الذى يحدث؟!

لا المفكرون، ولا الفلاسفة، ولا القانون، ولا الشعراء.. أصبحوا قادرين على الإجابة على هذا السؤال: ما الذى يحدث!

والذين فى استطاعتهم أن يجيبوا هم «العلماء المكتشفون» وهؤلاء يعطون إجابات غريبة لا يفهمونها فى الغالب، ولكنك أنت ستفهمها لا حتياجك إلى إجابة على سؤال يحيرك.. أما إجاباتهم فهى مادية ذات أرقام ومثلثات ومسافة.. إنهم لا أكثر من أناس يحتفون لك الفرصة المؤقتة لتموت بعدها، أو تزهد فى كل شىء

والذين زهدوا فى مغريات الحياة اليوم هم المصابون بالأمراض.. كالقرحة والسرطان، والقلب، والشيخوخة، واليأس.. ولكنك أيضا ستتعب من أجل العثور على من يتحدث مرتاحا عن الغد. ويعنى هذا الخوف من فقدان الامتلاك لشىء واحد!

والبعض يعالج خوفه بمزيد من الأحلام..

والبعض يحلم لئلا يفكر فى الموت، أو اليأس، أو الفشل..

وبعض ثالث لا يفكر فى اهتماماته إلا بالقدر الذى لا يفقده شعوره بالانتظار للغد!.

وقد نشرت بعض الصحف والمجلات فى العالم دراسات واستطلاعات عن الأحلام، والمقصود هنا: أحلام اليقظة عند شباب هذا العصر.. فرغم أن الشاب يبدو انفعاليا، أو متحمسا، أو رافضا، أو عاجزا عن توفير رغباته.. فإنه يجد اللحظة التى يغمض فيها عينيه ويتخيل أنق إحساس يختلج بين ضلوعه، وأنضر فكره يحاورها عقله، ثم تشوهها اضطراراته المادية أثناء المعاينة والممارسة!.

● الفريد نوبل

وتساءلت إحدى المجلات يوما: لماذا يعجز شباب هذا العصر عن تجسيد الخيال وإحياء الأحلام لتتحرك؟!.

● أجاب أحد الشباب قائلا: إننى احتار حقيقة فى فهم بعض النتائج التى نتحصل عليها، وعليكم أن تضعوا إجابة مقنعة على بعض ما يدور فى أعماقى. مثلا: هل ينضج شبابى لأننى أعدو ثم أعطيه طعما للشيخوخة؟!.. إننى أعمل بمواظبة. وأمارس الأعمال الصعبة، وأعرق. ويقول علماء النفس والطب: إن العمل يحقق شحنة من القوة للجسد.. لكن العمل دائما يهد عافيتى.. إننى بعد عمل طويل شاق أستطيع أن أبدل ملابس العمل بملابس السهرة.

ولكن.. هل هذه هى الراحة بعد العمل؟.. إننى لا أسهر كل ليلة لأسباب كثيرة.. منها أن مواردى محدود. وكل شىء فى عالمكم يتطلب مزيدا من النقود فإذا لم أسهر أجد نفسى مرتاحا فوق سريرى، وهذا الاستلقاء يرفع نظراتى إلى سقف الغرفة. أو يلصقها بالجدار، فأتخيل للحظات شيئا من طموحى. وصورة للحياة التى أحلم بها، أو وجه الأنثى التى أحبها، ولكنى بعد ذلك أفكر فى الذى سأعمله غدا، والتعب الذى ينتظرنى.

وهذا الشاب يجعلنى أستعيد العبارة التى قيلت فى أحد الأفلام الفرنسية الحديثة جدا: الهاربون من الموت بالموت. وهى:

● يبهرنى الهروب فى الأحلام والجنون!!.

وهذا الانبهار نتيجة القضض الذى يعانى منه إنسان اليوم. وللانبهار أيضا نتيجة هى الجنون. والجنون يتمثل فى هذه الشواهد التى تطحن الإنسان وتجذبه: جنس قذر، وقتل متوحش. وانحلال رتيب!.

أما الأسباب فإنها تضيع فى حرائق كثيرة من جنون الماديات والرغبات، وتدنى الثقافة.

إن من مستخلصات تلك الدراسة: أن الشباب اليوم يفتقر إلى المعلومات العامة. فالدراسة أصبحت متخصصة، والشباب حينما يدرس علما من العلوم، أو فنا من الفنون يكتفى به وبما درسه. والمكتبات بدأت تشكو من انخفاض نسبة ما توزعه بيعا، فالشباب يقرأ المجلات والصحف ويهمل الكتاب، ويقبل على مجلات الجنس والجريمة. والصحافة العالمية تبرز هذا اللون متوجا بالكلام عن الفلوس!.

لقد سئلت فتاة إنجليزية فى الثامنة عشرة من عمرها: ماذا تتوقعين غدا؟

فأجابت: لا داعى لذلك الغد. يهمنى أن أجمع الأمس واليوم والغد فى اللحظة التى أمتلك فيها ما أريد، وبعد ذلك لا بأس أن يقتلنى بجنون أو يأس!!

قيل لها: وما الذى أقنعك بذلك؟!

قالت: أيضا ليس شرطا أن أكون مقتنعة. إننا نفتقد حقائقنا دائما، فلماذا نتعب من أجلها؟.. إننى لا أريد أن أتعب ما دام التعب قد سقطت معانيه وقيمه. أريد فقط ألا أبكى. وألا أكون وحيدة!

ثم أضافت تلك الفتاة قائلة: فى مرات كثيرة فكرت فى راحتى وأنا أبحث عن دموعى، وتساءلت هل فى استطاعة أحد أن يجيبنى لماذا يبكى، أو كيف يبكى إذا أراد؟!

وأتسلل من بين سطور هذا الحوار.. لأرجع إلى حوار من المحتمل أن يتردد اليوم بين اثنين.. ليمتزج بما قرأته على لسان تلك الفتاة البريطانية:

قالت زوجة الرجل العجوز: قم من كرسيك الهزاز فقد حطمته جلستك المستمرة واخرج إلى الشارع، فربما قال لك أحد المارين: أنت قذر!

قال الرجل: ولماذا أخرج إلى الناس حتى يشتمونى؟!

قالت: لكى تشعر أنك تحيا عصرك وأنك لم تمت بعد، فتستطيع أن تفكر فى عمل تشغل به وقت فراغك، وتريحنى من وجهك قليلا!

قال الرجل: ها أنت ذى تشتمينى، ولكن.. هل بلغ السأم عندك منى إلى هذا الحد؟!

قالت: بل بلغ الانتباه عندى إلى درجة السأم منك!

قال لها: عليك اللعنة.. كان ينبغى أن أستخرج طفلا منك ليخرسك. ويحطم سخريتك.. ألا تشعرين بالشيخوخة مثلى؟!

قالت: لقد عاشرتنى أكثر من عشرين عاما.. هذا يكفى لأن تكون شجاعا فى حياتك، لكن الشيخوخة فيك زرعت بداخلك الخوف من الموت ومن الأحياء.. لقد طاردت شبابى برغباتك، فانظر ما الذى يفعله شباب اليوم.. ليتنى لم أولد بعد!

قال الرجل بهدوء: الوفاء ليس كافيا!!.. سأخرج الآن فربما شاهدت فتاة فى العشرين تنطبق ملامحها على ملامحك!

قالت ساخرة: لا تشعرنى بالحب «المعلب!».

قال الرجل: الزواج هو حب «معلب».. أحيانا يفسد ما فى داخل العلبة لقدمها، وأحيانا لهروب الهواء منها. وأحيانا قليلة لا يفسد.. لأن ما فى داخلها قادر على أن يتجدد دائما!

قالت : والآن ؟ !

قال : سأخرج .. وأفتح هذه العلبة !

قالت وهى تصرخ : اللعنة عليك مجددا .. عد إلى كرسيك الهزاز لقد تعودت على صوت حركته فى الغرفة !

• • •

• • ولم يكن هذا الحوار بين « شائخين » منفصلا عن إعطاء هوية لإنسان هذا العصر ، أو للعصر الذى شاخ . ولكنه غرس فى عواطفنا أشياء كثيرة من الأحلام الباردة ، أو من الترقب القاتل : ما يأتى تماما مثل الذى لا يأتى !

إن هذا الحوار بين « شائخين » هو انعكاس يحدد هوية هذه النفسيات . وليست الملامح أو الأسماء أو الأعمال .. فإذا كان عملك جيدا ، فهذا يعنى أن نفسيتك هى ضميرك وهى صفاء مشاعرك ، ولكنك تصطدم بنماذج تعيش بيننا .. من الذين يبددون أحلامهم فى فضاء سقف الغرفة ، أو يبعثرون غضبهم بأتفه الانفعالات ، والغضب عميق ومعرفة وقضية !!

وإذا تلفتنا قليلا نحو الشباب المثقف .. لوجدنا أن نسبة كبيرة منه تعود بعد تحصيل أعوام طويلة من العلم والمعرفة بحثا عن مستقر راكد .. فى مركز ، أو وظيفة مريحة !

لقد قال « كرواك » عبارته التى أوردتها فى بداية هذا الحوار ، وكان هذا الكاتب يعتبر « مبتدع أدب الغضب » فكل ما كتبه كان غاضبا ، وكان غضبا ، والغضب كما قلت هو عميق ومعرفة وقضية . ورغم غضب « كراوك » قال عبارته تلك لتنزل كل العيون من « شعلقتها » فى السقوف ، وتبحث عن مصادر الرؤية الجيدة لمطالب الحاضر فى إطار : الوطن ، والعمل ، والإبداع ، والقضية !!

إننا نبحث عن جديد لا يسمح للشيخوخة بأن تتسرب إلى طموحته وأحلامه ، وإلى قدراته ، وألا يكون محور إبداعه متأثرا بشعور محدد .. ضيق التحديد !

إننا نتوق إلى الخروج من زحام الصراعات المادية .. بعيدا عن التوتر النفسى ، الذى يضخم حجم التعالى فى تصرفاتنا ، وحجم الرغائب فى تطلعاتنا !!

• • •

• • ثم ندخل فى تحديد أكثر معاناة وأسى :

نحن لا نحمل هموم العالم .. لكننا نهتم بما يحملونه لكلمة « السلام » والمعانى المفتقدة داخلها . إن هموم العالم .. وإن كانت كورقة نشاف تتمدد وتغطى الأرض كلها .. فإنها فى المحصلة هى هموم مجزأة .. تنفرد بالعالم منطقة بعد أخرى فتأكلها . ولا يمكن لأحد من الناس فوق بقعة من العالم أن يكره وطنه .. لكن الكراهية الأكثر خطورة هى أن يكره

أرفنج والاس

الإنسان نفسه ، أو يكره من يحب . فيتم التدمير بهذه التجزئة ليعم القيم الإنسانية ، ويشوه منجزات الحضارة ، ويطمس قدرات الإنسان على العمل والأمل !

وفى هذا التصور يفتقد العالم حلمه وأحلامه . وإذا فقدنا « الحلم » أضعنا الغضب فى الهشيم المتخلف من حرائق نفوسنا . وإذا عجزنا عن « الأحلام » تحولت نفوسنا وعواطفنا إلى آلات ، وإلى حدة واختناق .. فالحقائق عندما تتراكم تقتل ما تحتها . ودائما يبقى الإنسان تحت حقائقه لأنه لا يقدر عليها جميعا ، ولأنه لا يحققها كلها !

فكيف يعيد الإنسان أحلامه بحلمه ؟ !

والإجابة تائهة .. فالسلام هو « الأحلام » تصاغ فى أشكال كثيرة وعبارات مترادفة ومتعاقبة داخل أروقة الأمم المتحدة ، وصالونات الحكومات الكبيرة ، والبيانات والتصريحات !!

ولابد أن يتلفت العالم حوله بحثا عن « الأحلام » . ليحقق نصا واحدا من فقرات الأشكال والعبارات والبيانات والتصريحات التى تقال عن السلام ، وحتى الفكر والمواهب والعلم والأدب والفن .. عجزت عن فعل شىء ، رغم عذاب الضمير الذى جسده « نوبل » فى نهاية حياته ، وهو يعانى من تبكيت الضمير ، فيرصد جائزة سنوية للذين يبدعون عملا من أجل السلام .. فى عالم اشتعل ولا يعرف أحد متى يعود إليه الربيع .

واقرأوا معى هذه الحكاية : « قابل الكاتب الأمريكى أرفنج والاس أحد السويديين مصادفة ، وجلس إليه طويلا ، وكان الحديث بينهما سخيفا مملا ، وكان السويدى هو الذى يتكلم عادة ، وتوقف الكلام لحظة ، وجاء الدور على أرفنج والاس ليتكلم ، فسأله : وما الذى تعمله فى هذه البلاد ؟ !

وكان رد الرجل السويدى : لا أعرف إن كان هذا الذى أقوم به يعتبر عملا .. على كل حال أنا أحد أعضاء لجنة التحكيم لجائزة نوبل ! !

وحتى هذه الجائزة .. ما الذى أعطته للسلام حتى الآن ؟ !

والذين فازوا بالجائزة على مدى السنوات الطويلة .. ما الذى كان فى أعمالهم يخدم السلام ، أو يخفف حدة الحرب والكراهية ؟ !

ولكن السلام « مصابرة تكابر » .. فالعالم يتكلم عنه كثيرا ، ولا يقدر أن يحلم به قليلا !

ولكن « الأحلام » تتحول فى هذا العصر إلى ضرب من الجنون التعيس ..

إنها أحلام عاجزة أن تحمل فى تضاعيفها قدرة البوح على الأقل !!

و .. أخيرا جدا .. أختار طائعا أن أتوقف عند هذه العبارة :

• « ما دمت لا تعيش حتى المائة .. فلماذا تحترق ألف مرة .. » ؟ !

ورغم أنها حقيقة ، ورغم أن خلفيات المعنى فيها من أسرة الحلم المفقود ، والقلق الذى يشبه ورقة النشاف ، ورغم أن الإنسان لا يضمن الدقيقة القادمة من عمره فى ظل تهديد أمنه ، وتهديد راحته الموهومة فكل واحد يركض ويزاحم ويخاصم ويحقد ، ويتلوث من أجل « حفنة » من أى شىء ما تلبث أن تضيع !!

ويبدو أنه من الضرورى أن يحترق الإنسان ألف مرة فى اليوم .. ليعرف أنه يعيش بين الناس طوال اليوم .. لأنه مثلما أن الحياة غير مضمونة .. فإن الموت أيضا غير مضمون !!

زراعة الضمير

بصراحة .. بكل صراحة . نحن فى حاجة إلى من يعلمنا النظام والنظافة والهدوء ، والصبر والسلوان ونحن شعب أصيل وعريق . وهذه حقيقة تاريخية وحضارية . ولكننا لسنا الشعب الوحيد ، والدنيا مليئة بأبناء الأصول ، وهم أيضا فى حاجة إلى من يرشدهم ويعلمهم . وقد يأتى هذا العلم فى صورة قانون ، أو فى شكل مشرف أو [illegible] تنفيذ هذا القانون ، ويراعى سلامة المواطن وأمنه فى النهار والليل .

وأنا وأنت وغيرنا يحشرون فى الأتوبيس كل يوم . ونظل ننتظره على محطته بالساعات وقد يأتى أو لا يأتى . وليس جديدا أن يكون عندنا مفتش يراقب سير الأتوبيس فى الشارع ويضبط المخالف ، ويوقع الجزاء . وكانت كلمة « المفتش » لها حساب وكانت كلمة « المفاجىء » لها معنى ، وكان النظام فى سير الخطوط بنسبة أكبر وأفضل .

وقد تمشى فى الشارع تنفسط عليك حلة أو صفيحة أو ما فى داخلها . على حسب الشارع ونوعية السكان فيه ، وزمان كان عندنا معاون للصحة مهمته مع مساعديه الاشراف على تنفيذ قانون النظافة والصحة فى الشوارع والدكاكين . وكانت الغرامة فورية لكل من يتعرض للشارع بأذى . وكان السكان يفكرون أكثر من مرة قبل أن يلقوا بمخلفات مساكنهم الى الشارع .

وعندما تجبرك كراسى أية « قهوة » على النزول من على الرصيف وتمنعك السيارات وعربات الكارو واليد من المشى . فإن « البلدية » كانت تحل هذه المشكلة . وكانت هى المفتشة التى تزيل إشغالات الطريق بسرعة وبحسم فيستطيع الناس أن يسيروا على الرصيف والعربات أن تخترق الشارع . ويصبح ما لقيصر لقيصر ...

وكان أى تاجر لا يجرؤ على إضافة مليم واحد زيادة عن التسعيرة . وقبل أن يمد لسانه للزبون بثمن السلعة كان يدور حول نفسه بحثا عن مفتش التموين .

وتنفيذ هذه القوانين .. ووجود هؤلاء الرقباء على التنفيذ ضرورة . وخطوة أولى وأساسية لنتعلم النظام والنظافة . وهى أشبه بكلمة « عيب » نقولها للمخطىء . وهى بمثابة إعداد غرفة العمليات لإجراء جراحة زراعة الضمير فى أعماق الناس .

عادل البلك